فتح الاندلس

(٢)

اما ابناء غيطشه وحزبهم فكانوا يميلون الى العرب لكي يتخلصوا من لذريق المغتصب ويقول ابن القوطية انهم ثلاثة وهم الُمنْدُ Olemundo ورُمُله Romulo وارْطباس Ardabast ولكنهم لم يستقدموهم للفتح ولم يجعلوا زوارقهم تحت امرتهم لنقل الجنود(١) اذ ان الزوارق التي امّ بها العرب الاندلس هي للكونت يوليان وهذا ما يؤكدهُ جميع مؤرخي العرب ولم يسر ابناء غيطشه ويخاروا طارقاً الاّ حين نزل المسلمون اسبانيا . ترى ما كان مقصدهم في خيانة لذريق ؟هل كانوا يريدون بذلك المحافظة على املاكهم كما يدعى ابن القوطية ؟

هذا ما نعتقدهُ امراً ثانوياً في نظرهم اذ ان الهدف الذي كانوا يرمون اليهِ بكل قواهم هو السلطة والعرش ولم يفكروا ان تسليمهم البلاد للمسلمين هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ امانيهم بل كانوا يظنون ان هؤلاء العرب الغرباء راغبون في المغنم عاملون على القفول لا حاجة لهم في استيطان بلادهم(٢) بل ربما كفوهم امر لذريق فاذا ما انصرفوا اقعدوا في ملكهم من يستحقهُ . ان ذلكم الاستنتاج كان عقلياً منطقياً اذ ان طارقاً اتى اسبانيا بحملة لا كتشافها وسلب ثرواتها كمن سلفهُ ولو كان موسى عالماً بان تلكم الغزوة ستتحول الى فتح كبير لجهّز طارقاً بالجيوش الكثيرة لا بحملة تتألف من اثني عشر الفاً يامدادها ولاّتى بنفسهِ ليفخر بشرف الفتح ويكون لهُ النصيب الاوفر من الغنيمة. ويؤكد ذلك المؤرخون العرب بدعواهم ان موسى حسد طارقاً لانتصاراتهِ الباهرة وقوله لهُ يوم التقى بهِ في اسبانيا حين قدمها « ما دعاك الى الايغال والتقحم في البلاد بغير امري وانما كنت بمثلك عازياً ثم تنصرف » (٣)

---

(١) Recherches sur l'Histoire et la Littérature الجزء الاول صفحة ٩٩
De l'Espagne pendant la Moyen Age par R. Dozy.

(٢) فتح الطيب الطبعة الازهرية المصرية صفحة ١٢٠ الجزء الاول

(٣) هذا قول عارب من المؤرخ Dozy من كتابه Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne الجزء الاول صفحة ٧١

وهذا ما يثبت لنا ان تفكير ابناء غيطشه كان حقاً اذ ان المدو لم يأتِ بلادهم للاقامة فيها واعلاء كلمتهِ ورفع لوائهِ ونشر دينهِ وشرائعهِ ولكن الفتح على ما سنذكر اخذ دوراً لم يفكر فيهِ ابناء غيطشه وموسى حتى ولا طارق نفسهُ وذلك انهُ لما رأى تضعضع الجيش القوطي امامهُ واختذالهُ لم يسر بحسب الاوامر المعطاة اليهِ ولم يرجع الى افريقيا كما امرهُ موسى بل سار الى الامام فاصبحت اسبانيا في قبضتهِ . وقد مكنهُ الاهلون ايضاً من الانتصار اذ انهم رأوا في جيشهِ رسل الحرية وهادي صرح العبودية ولذا تزعزعت اركان المملكة وخضع امراؤها وكبارها لهُ فهذا حذوهم ابناء غيطشه وعقدوا المعاهدات مع المسلمين وبها يحفظون املاكهم (١) ولا ريب انهم بطمعهم في السلطة واضاعتهم كانوا سبباً قوياً في انتصار العرب واختذال القوط

ومن جملة الاسباب التي اضعفت اسبانيا هو انحطاط الكنيسة الاخلاقي . إن تلك القوة العاقلة التي رفعت العالم الانساني من الوحشية وسنت لهُ من القوانين ما ظل محافظاً عليها ليومنا قد اصبحت بيد قوم تطيب لهم الخمرة ويحلو لهم معاشرة النساء وقد كانوا لا يعرفون من المعتقد المسيحي وفضيلتهِ الا الطقوس والاحتفالات الخارجية اما جرائم المرء الخاطي عندهم فكانت تعفى بقدر ما كان يدفع الى صندوق الكنيسة وجيب الكاهن من الاموال (٢) ولا ريب ان الفضيلة كان لها من بينهم انصار اذ ان لكل قانون شواذًّا

هذه هي الاسباب التي كانت تعمل دوماً لهدم الدولة من الوجهة الاسبانية ولننظر الآن الى الاسباب التي جعلت العرب ان يروا في الاندلس ميداناً واسعاً لمطامعهم

إن الشعلة الاسلامية التي صرت من الحجاز فعمت فارس والعراق وسوريا ومصر اخذت تفسح لنفسها طريقاً الى موريتانيا وذلك عن يد القائد موسى ابن نصير

ولد موسى في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) وابوهُ نصير اصله من مسيحي عين التمر في العراق ممن اسلموا على يد خالد بن الوليد وقد صار بعد ذلك

(١) Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne الجزء الاول صفحة ٧٢

(٢) History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott. الجزء الاول صفحة ١١٤

وضيعاً لعبد العزيز بن مروان اما موسى فاظهر نجابةً وذكاء في صغره مما استلفت اليهِ انظار الخليفة . ولما ولي هذا اخاه بشر بن مروان على البصرة اشخص معهُ موسى بن نصير وزيراً ومشيراً . فاقتطع هذا لنفسه من اموال العراق[1] مما يوجب عليهِ القانون المحاكمة فهرب الى دمشق ولجأ الى عبد العزيز اخي الخليفة وكان يأمل بموسى خيراً فحفظ حياته ولما ولي عبد العزيز نائباً للخليفة على افريقيا صحبهُ موسى الى مصر فكان من اشرف الناس عندهُ وقد جعلهُ قائداً عسكرياً مهمتهُ اخضاع البربر فسار اليهم ووطد شوكة الخليفة في الزاب ودرهار والصحراء ومسموده واعتنق اكثرهم الاسلام ودفعوا الضريبة التي اشترطها عليهم. وهؤلاء البربر كالبدو الرحّل يطلبون الماء والكلاء للمرعى جماعات جماعات وينزون بعضهم بعضاً فيأكل القوي منهم الضعيف. ولكثرة من بسط نفوذهُ عليهم من الدول كقرطاجنة وروما والفاندال والبيزانطيين لم تكن بينهم من رابطة تجمعهم الى ان جاء العرب فاحكم موسى الوصلة معهم. ومما سهل لهُ ذلك اختلاف مذاهبهم ومعتقداتهم فأتى الاسلام دين الامة الفاتحة بلادهم والداعي الى اصلاح يفوق ما تعودوهُ من الوثنية ديانتهم القديمة فجمع العرب واياهم برابطة الدين القوية[2] ولم يكن للنصرانية واليهودية بينهم من اساس ثابت وكان بعض قبائلهم قد اسلم باحتكاكهم مع الفاتحين الاول

ان موسى رأى ما فعل الاسلام بتلكم الامة العربية من جمع شتاتها ورفعها الى مستوى الانسانية الراقي ولذا امل ان يجعل من الامة البربرية رجالاً يجمعهم والعرب معتقد واحد هو الاسلام . فكانت هذه هي خطتهُ التي سلكها وبها جعل لاعمالهِ العسكرية نتائج حسنة اذ لولاها لكانت المنفعة من هؤلاء البربر للاسلام عقيمة ان لم تكن كلا شيء . وموسى اشهر من عرف بنشر الدعوة الاسلامية ولذا لقبهُ Coppé بحق Propagandist [3] فكان يتقرب منهم ويصلي بهم ويخطب فيهم ولذا هرعوا اليهِ من كل جانب

وفي السنة ٧٠٥ توفي عبد الملك بن مروان وخلفهُ ابنهُ الوليد الذي امتدت سلطتهُ من ضفاف الكنج الى شواطىء الاتلانتيك. وقد لقبهُ كوبه بالقائد الاكبر

(١) كتاب الامامة والسياسة مطبعة الفتوح الادبية الجزء الثاني صفحة ٤٩
(٢) Coppé الجزء الاول صفحة ٧١
(٣) Coppé الجزء الاول صفحة ٧٢

للمسلمين في المغرب وامير افريقيا ولما اتسعت سلطتهُ ولم يعد يتلقى الاوامر من نائب الخليفة في مصر بل من دمشق دار الخلافة . اما وقد اذ بح البربر يدينون بدين الاسلام وهم مشهورون بحب القتال وفيهم تلك الغريزة الحربية وحب الغنيمة فعرف العرب موضع ضعفهم وجيشوا منهم الجيوش الى اسبانيا لكي يشغلوهم عن طلب الحياة الاستقلالية واتخذوهم حلفاء لهم في الفتح نظراً الى شجاعتهم وممارستهم القتال[١] وبذلك فاز العرب بقوى البربر ساعدهم الأيمن في الفتح . وجعل موسى من طنجه قصبة ملكهم المحطة التي كان يضرب بها سبتة مفتاح اسبانيا

لو نظرنا الى الخارطة لوجدنا ان افريقيا الشمالية متحدة جغرافياً مع اسبانيا لا يفصلهما الاَّ مجاز طولهُ اثنا عشر ميلاً وهي لا تختلف في محصولاتها وتربتها ومناخها بالشيء الكثير عنها

ان احتلال العرب افريقيا الشمالية وسكناهم بها حرَّك فيهم حب الفتح سيما وهي تشبه سوريا بسمائها الصافية وارضها الجميلة والمين بطيبة الجو وحسنهِ والهند باطيابها وزهورها ومصر بخصبها والصين بحجارتها الكريمة[٢] . اجل غناؤها الطبيعي ومدنها العامرة المملوءة بالآثار ومعادنها الكثيرة وانهارها الكبيرة ومياهها العذبة وتربتها الخصيبة وحيواناتها المتعددة ومواسمها التي ضاهت مواسم النيل والفرات جعلت العرب ان لا يتخلوا عنها وهي سهلة الفتح والقياد[٣]

ان سبتة كانت الحصن الوحيد الذي ثبت امام العرب[٤] وكان حاكمها يُدعى يوليان قتلهُ موسى فالقاه في نجدة وعدة فلم يُطِقه ورجع الى مدينة طنجه فاقام بمن معهُ واخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم والسفن تختلف اليها بالمؤن والذخائر من الأندلس من قبل ملكها غيطشه الى ان هلك واضطرب حبل البلاد بالمنازعات الحزبية . ولم يكن يوليان حاكماً لافريقية من قبل الملك الأسباني بل عاملاً لامبراطور القسطنطينية على سبتة وضواحيها[٥] . ولما كان حاكم سبتة

(١) La Civilisation des Arabes par Dr. Gustave Le Bon الجزء الاول صفحة ٢٦٩
(٢) Gustave Le Bon الجزء الاول صفحة ٢٧٢
(٣) History of the Moorish Empire in Europe. الجزء الاول صفحة ٢٠٥
(٤) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٩
(٥) Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne. الجزء الاول صفحة ٦١

محاطاً بالبربر من كل جانب وبعيداً عن العاصمة البيزنطية لما بينهما من البعد الشاسع فمن البديهي ان يتقرب من الملك القوطي، الملك المسيحي الوحيد في جواره ويخضع لسلطته الاسمية . وكان يُلقب بال Exarchi او Exarque ومعناها الكونت.

وكان يوليان يرى في لذريق الرجل المغتصب ويميل الى حزب غيطشه اذ انه صهره وصديقه فلما استولى العرب على ضنجه وطلب منه ابناء غيطشه المعونة على خصمهم لذريق تنازعته الاهواء فيما هل ينكب لذريق ويعقد معاهدة مع الاعداء تحفظ له مصالحهُ وترجع الى العرش ورثتهُ الحقيقيين بمساعدة هؤلاء العرب الذين لا يطلبون سوى الغنيمة ام يظل ثابتاً الى النهاية . لكننا نعلم انه صمم على نكبة لذريق وينسب اكثر المؤرخين من العرب والافرنج ذلك لما لحقه من العار في شرف ابنته فلورندا كافا (١)

ولكنهُ كان للمنافع السياسية والاقتصادية التي نوهنا عنها السبب الأكبر في انضمامه الى الفاتحين(٢) ولم تزل جنسية يوليان رهن البحث والتنقيب فمنهم من يجعله بالبربر وغيرهم بالقوط واليونان والرومان (٣)

وكانت جيوشه خليطاً من شعوب افريقيا لم ينازعهُ الاسبان امارتهُ حين تقلصت السيادة البيزنطية عنها ولا سطوا عليه لانهما كهم بالمنازعات الحزبية وتعدد من اعتلى العرش في امد قصير

وكيما يصل الى هدفه اسرَّ يوليان الى من يثق به ان يوعز الى لذريق في غزو غاسقونيا (جيليقية) في الشمال واخضاع البشكنس "Basques" وبذلك تم لهُ ايعادهُ مع جنده وتسنى لهُ ابرام ما وده من الشروط مع العرب دون رقيب . ويقول القرطبي إن معاهدتهُ عقدت في القيروان اما المقري فيخالفهُ في ذلك ويذكر انها

(١) تفنح الطب من غصن الاندلس الرطيب الطبعة الازهرية المصرية ٥ يقول بذا الخصوص ٥ انه كان من سير أكابر القواد والامراء في الاندلس ان يعثوا لاولادهم الى طليطلة دار الملك ليتأدبوا بأدبه فاتفق ان فعل ذلك يوليان فلما صارت ابنته عند لذريق احبها حبا شديداً ونكبها في شرفها فاعلمت اباها بذلك سراً فاشتدت حيته وود الانتقام — باختصار الجزء الاول صفحة ١١٨ و Coppé يذكر خبرها في الفصل السابع من الجزء الاول صفحة ١٩٤

( ) History of the Moorish Empire in Europe. الجزء الاول صفحة ٢٢٤

(٣) ان Scott ينسب يوليان الى الروم (اليونان) جزء اول صفحة ٢٢٢
و Coppé يعتقد بانه روماني اما مؤرخو الاسبان فيقولون انه قوطي الجزء الاول صفحة ١٩١ اما Dozy فيشك في جنسيته

تمت في سنة وهذا هو الارجح . ومهما يكن من امر الوضع الذي اجتمعوا فيه فيوليان قد جعل موسى على بينة من ضعف البلاد وخلو حصونها من الحامية ونقمة ابناء غيطشه . وشوّقه الى فتحها فوصف له حسنها وما جمعت من اشتات المنافع وانواع المرافق وهون عليه ذلك حال رجالها ونعتهم بضعف البأس[1]

وليتحقق موسى صدق عزعته طلب منهُ ان يشن الغارة على شواطئها مكتشفاً ففعل يوليان ذلك وحلّ بساحل الجزيرة الخضراء فاغار عليها وقتل وسبى ورجع بالغنائم وكان ذلك في دسمبر سنة ٧٠٩ م اي عقب سنة تسعين

فكتب موسى الى امير المؤمنين الوليد يخبرهُ بما تمّ لهُ مع يوليان وما دعاهُ اليه ويستأذنهُ في اقتحام الجزيرة

فامرهُ ان خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها[2] وذلك لكي لا يجازف بارواح المسلمين فبعث موسى أنشذ مولى لهُ من البربر اسمهُ طريف يكنى ابا زرعه في اربعمائة رجل معهم مائة فارس سار بهم في اربع مراكب فنزل بطارفه وهي تقارب Aljeziras التي يدعوها العرب بالجزيرة الخضراء . فاصاب مغنماً منها وكان ذلك سنة ٩١ هجرية

وقبل ان يتناول اسم الاندلس اسبانيا باجمعها فقد اطلقهُ بربر طريف على طارفه وذلك ان Tradocta وهو اسمها الروماني هي الميناء الذي ابحر منهُ الفاندال الى افريقيا حين هجرتهم ولما اقترن اسمها بهم وليس من الغريب ان يدعوها بربر طريف « فاندلوس » Vandalos ولا ريب ان طارقاً حين فتح اسبانيا مؤخراً وسمت العاصمة في عرفهم ولم تعد تطلق على طارفه ومقاطعتها فحسب بل على البلاد باجمعها[3]

وكانت جماعة من الفرسان العرب تأمّ الشواطىء الاسبانية غازية سابية غير متوغلة في البلاد قبل ان يحلم المسلمون بالفتح

انيس زكريا النصولي

---

(١) نفح الطيب الطبعة الازهرية المصرية جزء اول صفحة ١١٨

(٢) نفح الطيب الطبعة الازهرية المصرية جزء اول صفحة ١١٨

(٣) Recherches sur l'Histoire et la Littérature De l'Espagne الجزء الاول صفحة ٣٠٢ — ٣٠١